(3) أجساد وذوات

مهما كانت بينة مذهب الشك الذى يعترف به هيوم ، فليس هناك أدنى شك، أنه يعتقد بوجود ما يمكن أن يسمى بالموضوعات الفيزيائية بالنسبة للإدراك العام ، وحتى إذا افترضنا أنه ترك خلفه ذاته الفلسفية – على الرغم من أنه لم يفعل ذلك حقاً – عندما كتب مجلداته فى التاريخ بالإضافة إلى مقالاته السياسية ، وكما قال إنه فعل عندما لعب النرد ومرح مع أصدقائه – فهذا دليل كاف على هذا الاعتقاد فى كتاباته الفلسفية ، فقد أظهر اهتماماً بالعواطف والأحاسيس التى أدرجها تحت عنوان (الانطباعات الثانوية) وذلك بسبب أدائها دور فى نظريته الأخلاقية ، ولكنه لم يهتم كثيراً بالانطباعات الأصلية التى تتشكل بناء على الإحساس سواء فى القسم الأول من كتابه الأول (رسالة) ولا فى (البحث) لقد دون عدداً من الملاحظات بشأنها عموماً ، مشيراً كما رأينا إلى القوة والحيوية التى من المفترض أن تحدثها فى الذهن ، أو إلى كونها وجودات داخلية تتلاشى ، لكنه كان لديه القليل ليقوله عنها بالتفضيل ، لم يشر عندما أورد أمثلته عن أمور الواقع إلى الألوان والأشكال ولكن إلى موت قيصر فى مجلس الشيوخ بروما وإلى خصائص الزئبق والذهب وإلى عضلات وأعصاب الأجساد البشرية وإلى الشمس والكواكب وإلى الأزهار والأشجار وإلى اصطدام إحدى كرات البليارد بالأخرى – أن هذا يعبر عن الاقتران المنتظم بين الأشياء الذى يندرج تحت هذا النوع ، كما سوف نرى الذى يعتمد عليه تحليله

للسببية ، قد لا يكون هناك استخدام لتطبيق نظريته فى الانطباعات ، كما يجب أن يفعل إذا اعتقد بالفعل أنه لا يوجد أى شئ آخر مستفاد منه للسبب الجيد لعدم إظهار انطباعاتنا الفعلية للاقتران الأساسى، لنأخذ مثالاً بسيطاً ، قد يكون السبب هو : أن الورود التى زرعت فى الربيع تزدهر عادة فى الصيف ، ولكن هذا لا يعنى أن الانطباع الذى تشكل بناء على رؤية أن الوردة مزروعة يُعقب عادة بانطباع برؤيتها تزدهر .

قد لا يكون الشخص هناك فى وقت لاحق ، وحتى لو كان هناك فقد يكون انتباهه مشغولاً بشئ آخر، ليكن هذا مسموحاً ، إذن، فقد اعتقد هيوم ، واحتاجت غاياته الفلسفية أن يعتقد بوجود الأجساد ، وفى الحقيقة أنه فى بداية الجزء الذى ضمنه مؤلفه (رسالة) بشأن (النزعة الشكية فى الأحاسيس التى تقدم المصدر الرئيس الذى ينسب إليه (نظرية العالم الخارجى) ، فقد قال بنفسه عبارة غامضة المعنى (قد نسأل : ما الأسباب التى تحسنا على الاعتقاد بوجود الجسد ؟ - لكن هذا سؤال تافه هل هناك جسد أم لا ؟ - هذه هى النقطة الأساسية التى يجب أن نفترضها فى بحثنا فى كل استدلالاتنا) (T187) ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن عدداً من الأسئلة يبقى بلا إجابات ، لقد رأينا أن وجود الأجساد الذى سلم به هيوم جدلاً – كانت – أشياء مثل البيوت والكتب والأشجار وأجساد الحيوانات والبشر بما فى ذلك أعضائهم الداخلية ، يبرز السؤال – كيف فكر فيها ؟ هل مثل

لوك بأنها الأسباب الخارجية للانطباعات الحسية ؟ أم مثل باركلى كمجموعة من الكيفيات الحسية - أو على غرار بعض طرقه ؟ - لقد كان لديه إجابة عن السؤال عن كيفية اعتقادنا بوجود الجسد ؟ - ولكن ماذا عنى بقوله أنه من التفاهة أن نسأل ما إذا كان يوجد جسد أم لا ؟ ، إن أوضح تفسير لهذه العبارة هو أن اعتقادنا بوجود الجسد يعد حقيقة لا يتطرق إليها الشك ، ومع ذلك ، فإن نتيجة فحص هيوم لأسباب هذا الاعتقاد هى ما إذا كان يعد فى شكله الساذج أو ما أسماه فى (شكله الفلسفى) ، هذا ليس فقط غير حقيقى ولكنه مربك بشكل كلى ، ومن المسلم به أنه لم يتوقع أن يحمل هذا الاستنتاج أى إدانة دائمة ، لقد قال : تستطيع اللامبالاة Carelessness أن تزودنا بأى علاج ، ولهذا السبب أنا أعتمد عليهما تماماً : وأسلم جدلاً برأى القارئ فى هذه اللحظة ، الذى بعد ساعة سيقتنع بأن هناك عالماً داخلياً وخارجياً (T218) ، هل يجب أن نأخذ هذا كتأكيد لوجهة نظر كيمب سميث الذى عنى هيوم بها معتقداتنا الطبيعية ليحقق انتصاراً على فهمنا ؟ لكن ماذا يفترض أن يكمن فى هذه المعتقدات الطبيعية بالضبط ؟ مرة أخرى – الدليل يعد متضارباً ، فهناك فقرات تبدو أنها تقتضى ضمناً بأنه عندما يتكلم هيوم عن الموضوعات الخارجية ، نراه يعتبرها بطريقة لوك على أنها أسباب ثابتة لانطباعات الإحساس (الداخلية والزائلة) وعلى سبيل المثال – فقد رأينا ذلك بالفعل من خلال تعريف الانطباعات فى (التجريد) فقد تحدث عن امتلاكنا لصور ذهنية

عن موضوعات خارجية تنقل بواسطة احساساتنا ، ومرة أخرى فى مؤلفه (رسالة) ، فى بداية الجزء الذى أفرده لبحث وتحليل (العواطف) حيث أوضح الاختلاف بين الانطباعات الأصلية وبين الانطباعات الثانوية – فقد تحدث عن الانطباعات الأصلية كشئ بلا إدراك مسبق ينشأ فى النفس ، من الجسد ، من أرواح Spirits الحيوانات من تطبيق الموضوعات على الأعضاء الخارجية (T276) ، قال فى الفصل الذى خصصه لأفكارنا عن الزمان والمكان ، فى الجزء الأول – من مؤلفه (رسالة) نحن لا نستطيع مطلقاً أن ندعى معرفتنا بالجسد إلا من خلال الصفات الخارجية التى تكشف نفسها للاحساسات (T64) وتضمين بأن للأجساد صفات أخرى والتى تكمن بعيداً عن معرفتنا قد أكده هيوم بواسطة (ملحوظة) بأحد تذييلات الفصل ، حيث يتحدث عن الطبيعة الحقيقية لوضع الأجساد التى من الممكن أو من غير الممكن أن يخصص للخلاء لكونه غير معروف (T639) ، لقد احتوى هذا ضمنياً (الفلسفة النيوتونية) ، التى لم يناقشها على الأغلب ، وعلى الجانب الآخر ، فقد ناقشها تماماً فى الموضع الذى شرح فيه أساسياته وقد اقتضى ضمناً أيضاً أنه ليست لامبالاة وغفلة قارئه هى التى ستسمح له بالقبول ، وكما هو الحال دائماً مع هيوم ، يلخص ببراعة ووضوح هائل ، فى مؤلفه (بحث) الوضع بعد أن طور الحجج التى قدمها فى (الرسالة) .

وبهذا الصدد قيل لنا هذا : يبدو واضحاً أن الغريزة Instinct الطبيعية أو إشغال الذهن بفكرة تستولى على الإنسان ليضع ثقته فى أحاسيسه بدون أى استدلال أو حتى قبل استخدام العقل ، نحن نتصور دائماً العالم الخارجى الذى لا يعتمد على إدراكنا ، ولكنه قد يوجد على الرغم من غياب أو إبادة الإنسان أو كل مخلوق مُدْرك (E151) ، استمر هيوم فى نسب هذا الاعتقاد حتى إلى (عالم الحيوان) – أضاف فيما بعد (يبدو واضحاً أيضاً أنه عندما يتبع الإنسان غريزته الطبيعية العمياء والقوية ، فإنه يتصور دائماً نفس الصور الذهنية التى تقدمها له الأحاسيس لتكْون الموضوعات الخارجية ولا يستضيف أبدا" أى شك حيث أن المرء لا شئ إلا تمثيلات Representations للآخرين ، يعتقد أن تكون هذه منضدة التى يراها بيضاء ، يشعر عن طريق لمسها أنها صلبة ، وأنها توجد وتستقل فى إدراكنا ، وأنها تكون شيئاً خارجياً بالنسبة لعقولنا التى تفهم ذلك ، إن وجودنا يستعمل عدم وجودنا فى ذلك : غيابنا لا يبيده ، إنه يحفظ وجوده بانتظام وبالكامل ، ويجعل موقف الكائنات الذكية التى تدركه وتفكر فيه مستقلاً (E151-2) – لسوء الحظ – من وجهة نظر هيوم ، هذا الرأى العام والمبدئى لكل البشر لا يصمد أمام فحص انتقادى ، إنه يخضع (لفلسفة استخفافية) مما يؤدى إلى أن (كل إنسان يفكر ، يشك شكاً دائماً فى كل الوجودات التى تكون موضع اعتبارنا عندما نقول : هذا بيت وهذه شجرة ، لا شئ إلا مدركات فى الذهن ونسخ زائلة أو تمثيلات لوجودات

أخرى والتى تبقى متماثلة ومستقلة (E152) ، هذا ممكن أن يكون هذا جيداً ، إذا كان لدينا سبب مقنع للاعتقاد فى وجود هذه الموضوعات المستقلة ، ولكن هيوم يؤكد أننا لا نمتلكه ، إن افتراض أن إدراكاتنا تكون متصلة بالموضوعات الخارجية يمكن ألا توجد بوضوح فى الخبرة – أيضاً – كما يقول هيوم – دون أى أساس فى الاستنتاج (E153) – هذا يترك الشاك متمكناً فى هذا المجال – إن هيوم غير مسرور بهذه النتيجة ، ولكنه لم يبحث عن أى طريقة من أجل فحصها ، مثل البحث عن خلل فى الحجة – ما فعله بدلاً من ذلك هو عدم المبالاة ببساطة – لقد وضعنا الشاك المتطرف فى مواجهة بسؤاله عن الهدف الذى يعتقد أن نشاطه يخدمه فهو لا يستطيع أن يتوقع أن فلسفته سيكون لها أى تأثير باق على الأذهان أو حتى لو كان لها ، فإن تأثيرها سيكون نافعاً للمجتمع (E160) وعلى النقيض ، فقد يكون ضاراً جداً ، حيث إن التبطل الذى يمكن أن تؤدى إليه قد يضع نهاية لوجود الإنسان – لكن (الطبيعة قوية جداً للمبدأ) سيعترف الشاك (أن كل اعتراضاته هى مجرد لهو حيث لا يستطيع أن يمتلك أى اتجاه آخر لإظهار الحالة المتقلبة للبشر الذى يجب أن يتصرف ويفكر ويعتقد (E160) .

لقد منحت ملاحظات من هذا النوع دعماً لنظرية كيمب سميث التى تضمنت أن هيوم كان معنياً بإظهار أن الذهن يجب أن يفسح المجال لمعتقداتنا الطبيعية ، ولكن لا أراها تعد توطيداً بشكل حاسم لذلك إذا

كان هذا قصد هيوم فلا أعتقد أنه كان سيضم هذا الجزء فى ملحوظة شكية مركزاً على عدم قدراتنا على تبرير افتراضات تصرفاتنا أو لإزالة الاعتراضات التى قد تنشأ ضدها – ولم يؤكد صراحة أن معتقداتنا الطبيعية حقيقية ، وعلى الرغم من ذلك ، هناك نقطة مهمة اتفق فيها مع كيمب سميث ، وهى أنه من الممكن أن نستخرج نظرية فى الإدراك من طريقة هيوم فى الاستنتاج لا تفكك فى المذهب الشكى ، وهذا يعنى أننا سنخالفه فى موضع أو موضعين ، ولكن الاختلاف لن يكون كبيراً فيمنعنا من الوصول إلى نتيجة عادلة ، إنها ستتوقف فى الغالب على إعادة التقييم أكثر من رفض حججه ، سأحاول أن أبين الآن كيفية اعتقادى لحدوث ذلك ، ولكن أولاً - أريد أن نستعيد فى الذاكرة – الطريقة التى أتبعها بالفعل فى أجزاء من كتابه (رسالة) التى تعد أكثر أهمية بالنسبة لهدفنا الحالى ألا وهى (النزعة الشكية تجاه الإحساسات) .

إن السؤالين الأساسيين اللذين وضعهما هيوم فى هذا الجزء للإجابة عنهما هما (لماذا ننسب الوجود المستمر للأشياء حتى لو لم تكن حاضرة أمام إحساساتنا ، ولماذا نفترض أن يكون لها وجود مختلف عن الذهن والإدراك ؟ (T188) لقد طرح هذين السؤالين بالتوافق ، لتكون الإجابة عن الأول هى بمثابة إجابة عن الثانى ، إنه على حق إلى المدى بأنه إذا كان للأشياء وجود مستمر ، كما عرفها – فمن الممكن أن يكون لها أيضاً وجود مميز ، ولكن الاختلاف لم يحتاج لعقدها ، فمن

الممكن وفعلياً أن يؤكد عليها ، على سبيل المثال ، فوفقاً لما دونه برتراندرسل فى كتابه (مشاكل الفلسفة) وفى مواضع فى مؤلفاته الأخرى ، بأن الموضوعات التى تظهر مباشرة للإحساسات تختلف عن العقل ، لكونها تمتلك فقط وجوداً وجيزاً جداً أو سريع الزوال Momentary بسبب اعتمادها العرضى على الحالة الجسدية للمدرك، أننى أتفق مع هيوم فى هذه النقطة مع تحفظ واحد مهم كما ذكرنا سابقاً أن هيوم يعتمد بصفة أساسية على الحجج التجريبية المتضمنة الإشارة إلى العوامل العادية التى تظهر بعض الميل لجعلها حقيقة منطقية، حيث إن انطباعات الإحساس تكون غير منفصلة عن المواقف الإدراكية التى تحدث ، لقد لاحظت أن الحجج التجريبية ليست حاسمة ، على الرغم من ذلك – فإنه يجب أن نرى أنها – تشكل عقبة أمام القبول البسيط لموقف مثل موقف توماس ريد ، وأقترح أن هيوم يجب أن يقنع ليبقى على مبدأه المنطقى ، إن تحفظى هو أن هذا لا يلزمه تعريف الانطباعات منذ البداية على كونها معتمدة على العقل .

وفى الحقيقة أن هذا التعريف قد يكون غير متسق مع وجهة نظره ، والتى سوف نفحصها ، أى أن الذات ليست شيئاً إلا حزمة من المدركات المستقلة منطقياً ، حيث استنتج أن الإدراك قد يشكل جزء من أى شئ آخر، إن هذه على الرغم من ذلك ليست النقطة التى أرغب فى التركيز عليها ، حيث انه لا يؤكد أنّ أى إدراك يفعل ذلك .

إن نقطتى بالأحرى ، هى لو أن الانطباعات اعتبرت أولية أو ابتدائية فى ترتيب المعرفة فلا يمكن أن تلائم الاعتماد الأولى initial على الذهن أو الجسد ، ففى هذه المرحلة ، لا الأذهان ولا الأجساد تدخل فى الصورة ، لكن هل هيوم مؤهل لاعتبار الانطباعات أولية ؟ - أنا أؤكد أنه كذلك للسببين التاليين أولاً : أن هذا واضح – بمعنى – أن دافع الإنسان لقبول أى افتراض متعلق بما أسماه هيوم أمر من أمور الواقع، يجب فى النهاية أن يعتمد على حقيقة بعض أحكام الإدراك ، ثانياً : من السهل أن نوضح أن أحكامنا العادية للإدراك تؤكد أنها منحت بواسطة خبرات الإحساس التى تنشأ منها ، وعلى الرغم من ذلك، فإن المرء يكون غير واع عادة لعمل أى استنتاجات عندما يغامر على هذا الحكم الإدراكى البسيط مثل (هذه مرمدة Ashtray – أو هذا قلم رصاص ، هناك معنى لتجسيدهم الاستنتاجات ، لكن هذه الاستنتاجات يجب أن تكون لها بعض الأسس ، يجب أن تكون بالمصطلحات الفنية لبرتراند رسل (معطيات محكمة) Hard data يعتمد عليها ، وانطباعات هيوم هى ببساطة هذه المعطيات المحكمة مسماة باسم أخر – قد نوقشت الخطوة الثانية فى هذه الحجة فقط لنرى أنه صحيح أن الشخص محتاج فقط لتذكر النطاق الواسع جداً من الافتراضات التى تحملها أحكامنا الإدراكية العادية ، كبداية ، هناك افتراضات متعلقة بوصف أى شئ كموضوع فيزيائى من النوع القابل للملاحظة أى يجب أن يكون هذا ممكن التوصل إليه بأكثر من

إحساس واحد ولأى مراقب مجهز بشكل ملائم ، يجب أن يكون قادراً على البقاء غير مُلاحظ ، يجب أن يشغل وضعاً أو سلسلة من الأوضاع فى حيز ثلاثى الأبعاد وأن يستمر وجوده لفترة من الزمن ، نحن لا نلتزم عادة بهذه الافتراضات العامة ونادراً ما نكون راضين بعمل ادعاء بسيط عندما ندرك موضوعاً فيزيائياً من نوع أو آخر ، وفى الطريقة العادية نحن نُعرف الأشياء بطريقة أكثر تحديداً مثل مرمدة أو قلم رصاص أو منضدة أو مهما يكن وبذلك نلزم أنفسنا بمجموعة من الافتراضات الأخرى قد تتعلق هذه بمصادر الموضوعات ، مثلما ندعى أننا ندرك بعض الكائنات الحية أو بنيتها الفيزيائية وبخصوص الأشياء المصنوعة مثل القلم الرصاص ، نحن نضع افتراضاً بشأن قواه العادية يحمل فى الغالب وصفنا للشئ الذى ندعى أننا نراه أو نلمسه تضمينات عن تأثيراته الممكنة على الأحاسيس الأخرى مثل الصوت أو الطعم أو الرائحة التى تمنحها القوة لتخرج ، لكن الآن واضح جداً أن هذه المجموعة الكبيرة من النظريات لا يمكن أن تستخرج من أى مناسبة واحدة لخبرة الإحساس وأرى أن مالاً أتردد فى تعريفه على أنه مصباح قراءة على المنضدة أمامى ، ولكن لا شئ هناك فى النموذج المرئى قائم بذاته نستنتج منه بأن الموضوع عينى ، وإذا كان أى مراقب آخر حاضر، فإنه سيراه أيضاً وسيبقى ذلك غير ملاحظ وغالباً فى الوضع نفسه ، فهو مصنوع جزئياً من النحاس الأصفر ، وهناك مقبس Socket للمنتفع الكهربائى ، تحت ظله ، وهذا المقبس يمكن أن يكون مصدر ضوء ،

ما حضر لأحاسيسى بقدر ما عنى المصباح هو فقط النموذج المرئى والباقى كله استنتاجات ، إن هذا لا يعنى أننى مخطئ عندما أقول أننى أرى المصباح أو حتى أننى أسأت استخدام الفعل (أرى) ، ليس هناك ريب أن الافتراضات التى وضعتها بطريقة ضمنية تعد صحيحة فى هذه اللحظة ، وأن الاستعمال الشائع فى استخدام أفعال الإدراك الحسى هو اعتبارها مثل مفعولها وليس ما أسميته (معطيات محكمة) ، ويعنى المحتويات الفعلية للخبرات الحسية ، التى نحن بصددها ، ولكن الموضوعات (الأشياء) الموجودة التى تقدمها المعطيات المحكمة كأدلة حسية ، إن إغفال المعطيات المحكمة لا يعنى إلغاءها ولا تحذف الاستنتاجات بسبب عدم معرفتك ، إن الفلاسفة المعاصرين القانعين بأن الإدراك الحسى للموضوعات الفيزيائية يعد نقطة بداية لا يستلزم وصفهم بأنهم مخطئون ، حيث لا يجبر الشخص على بداية تحليل الإدراك الحسى ، إنهم يخطئون فقط عندما يؤكدون أو يفترضون ضمناً أن هذا التحليل غير ممكن .

إن الاعتراض المعيارى لتبنى نقطة بداية هيوم هو أنه يحبس الفاعل فى عالم خاص به لا يستطيع أبداً الفرار منه ، قد يكون هذا الاعتراض خطيراً إذا كان صحيحاً ، ولكنه ليس كذلك . لا يوجد أى شئ خاص يتعلق بوصف النماذج الحسية ، يستطيع أى شخص يكون لديه الخبرات الضرورية ، أن يفهمه ، صحيح أن النماذج تكون عينية Concrete – خلال حدوثها فى مجال حسى معين فى زمن معين ،

وصحيح أيضاً أن تصرف الشخص لإدراك بعض الموضوعات الحسية يكون فى زمن معين خاص به وليس بأى شخص آخر .

إن النقطة الحاسمة أنه لا إشارة إلى تدخلهم فى تعريف الانطباعات كعناصر أولية ، فهى محايدة فى هذا وفى كل النواحى الأخرى ما عدا تلك المتعلقة بمعالمها الجوهرية ، يبقى أن نرى ما إذا كنا نستطيع أن نجد طريقاً ممهداً منها إلى الأشياء الفيزيائية وما إذا كنا نستطيع أن نجد ، بعد ذلك – وسائل للتمييز بين الأشياء الفيزيائية وبين إدراكاتنا الحسية لها ، قد يُثبت فى حالة أو أخرى أننا سوف نواجه عقبات Obstacles لا تذلل ، ولكن هذه ، بلا ريب ، ليست مسألة نستطيع الحكم عليها مسبقاً فى البداية ، وبالنسبة لهيوم تأتى العقبات مبكراً جداً ، لقد رأينا بالفعل أنه اعتبر هذا مؤكداً "أن كل البشر غالباً وحتى الفلاسفة أنفسهم فى الجزء الأكبر من حياتهم اعتبروا إدراكاتهم كموضوعاتهم فقط وافترضوا أن الكائن الحقيقى الحاضر أساساً فى الذهن هو الوجود الفعلى أو الوجود المادى (T206) ، يجب على الرغم من ذلك أن يتم تخطيئهم ، حيث أن صفات ما أسماه وجودات فعلية لديها وجود مستمر ومتميز، فى حين إن الإدراكات تكون (تابعة Dependent وزائلة) ، وبالتالى فهم مخطئون لتناقض الافتراض بأن الشخص والموضوع نفسه يستمر أو لا يستمر عبر الزمن ، وقبل فحص وصف هيوم للطريقة التى أغوينا بها لهذا الخطأ ، من الجدير بالملاحظة أن فى عرضه للتناقض لم يكن واضحاً كما قد يبدو من النظرة الأولى

. لقد رأينا أنه أدرج (الهوية) فى قائمة العلاقات الفلسفية ، لكنه انتهى إلى أنها علاقة لا تشبع الإدراك ، هذا الاستنتاج ينبعث من معالجة هيوم للسؤال عن كيفية اكتسابنا لفكرة الهوية .

يجادل هيوم بأنه لا يمكن اكتساب هذه الفكرة بواسطة موضوع واحد ، حيث أنها تعنى (بأن موضوعاً ما هو هو بالنسبة لنفسه) – أنها تكون بلا مغزى إذا عبر عن الفكرة بكلمة (موضوع) وكان من المستحيل تمييزه عن التى تعنى بالنسبة لنفسه) (T200) – إن الفكرة التى تخبر عن موضوع واحد لا تعبر عن الهوية ولكن تعبر عن الوحدة Unity ، كما أنه من البين أن تعددية Multiplicity الموضوعات المختلفة ليست مصدر حصول فكرة الهوية ، من أين تأتى – إذن – فكرة الهوية ؟ ، وماذا يمكن أن يكمن فيها ؟ ، أجاب هيوم عن هذه الأسئلة بان فكرة (الهوية) هى نتيجة الخطأ الذى نقع فيه بشكل طبيعى عندما نفكر فى الزمن ، ولقد جادل سابقاً بأن (الزمن فى أدق معاينة يتضمن التعاقب Succession وأننا عندما نطبق فكرته على أى موضوع لا يطرأ عليه تغير فإن هذا يكون فقط بتوهم من الخيال ، إذ نفترض الموضوع عبر المتغير يشارك فى وجود الموضوعات المقارنة له فى الوجود وفى تغيراتها وعلى الأخص وجود إدراكاتنا وتغيراتها (T200-1) ، على الرغم من ذلك نكرس بشدة لهذه اللعبة الخيالية التى تمكننا من جعل فكرة الموضوع متوازنة كما كانت بين فكرة الوحدة والتعدد ، لذلك عندما ننسب الهوية لموضوع ، ما يجب أن نعنيه

هو أن الموضوع الموجود فى زمن معين هو نفسه الموضوع الذى يوجد فى زمن آخر) (T201) شريطة أن يحدُثا دائماً فى ظروف متغيرة – هذا يمكن أن يكون صحيحاً – على الأقل بالنسبة لبعض إدراكاتنا – إن استمرت بذواتها غير متغيرة – المشكلة هى أنها لا تفعل ؟ - كيف نفكر إذن أنها تفعل ؟ – إن تفسير هيوم بمفرداته أن كل الموضوعات التى ننسب إليها الوجود المستمر لديها ثبات خاص يميزها عن الانطباعات التى يعتمد وجودها على إدراكنا الحسى ، هذه الجبال والبيوت والأشجار التى تَمثُل فى الوقت الحاضر أمام عينى – تبدو لى دائماً فى الترتيب نفسه ، وعندما لا أراهم عندما أغمض عيناى أو أدير رأسى أجدهم قريبا – يرجعون إلىّ دون التعاقب الأقل – يظهر سريرى ومنضدتى وكتبى وأوراقى ذاتها بالطريقة نفسها المنتظمة ، لا يتغيرون بسبب أى انقطاع فى رؤيتى أو إدراكى لهم ، هذا هو الحال مع كل الانطباعات التى يفترض أن يكون لموضوعاتها وجود خارجى ، وكذلك الحال مع عدم وجود انطباعات أخرى سواء كانت لطيفة أو عنيفة ، اختيارية أو غير اختيارية (T194-5) ، ما يفضى إليه هذا : أن التشابه القريب يكون بين الانطباعات المتعاقبة ، ما هو مهم أيضاً ، هو بقاؤها فى علاقات مكانيةدائمة على نحو واضح لأعضاء التسلسل التى تبدى التشابهات الداخلية نفسها ، يقودنا هذا إلى مطابقتها بعضهم ببعض وتجاهل المقاطعات التى تحدث بينهم فى الواقع – النتيجة هى أنها تستبدل فى خيالنا بشئ دائم أو مستمر ، أشار إليها هيوم بلا تقديم أو

تأخير كموضوع أو إدراك الذى نعده موجوداً عندما لا تلاحظ ، حيث أظهر هيوم بعض الانحراف ، كما رأينا ، لجعلها حقيقة منطقية بأن الانطباعات تكون داخلية وزائلة ، فمن المثير للدهشة أن نجده يقول (أن افتراض الوجود المستمر للموضوعات المحسوسة أو الإدراكات لا يتضمن أى تناقض (T208) ، إن مبرره ليس فقط أن كل إدراك مميز عن الآخر وقد يعتبر وجوداً مستقلاً مما يلزم عنه أنه ليس ثمة عدم معقولية فى فصل أى إدراك خاص عن الذهن (209) . لقد سلم أيضاً بأن (الوجود نفسه المستمر والمتصل قد يكون أشياء حاضرة أمام الذهن أحياناً وقد يكون أشياء غائبة أيضاً دون أى تغير جوهرى فى الوجود ذاته (T207) ، اعتقد أن هذا التنازل حقيقى وليس مجرد وصف لفهم خيالنا ، سأحاول الآن أن أظهر أنه لم يكن فى حاجة لأن يضعها فى شكل خاص ، فهناك نهج يمكن أن يحصل به على ما أعطاه بينما مازال ينكر الوجود المستمر لأى انطباع فعلى كأمر منطقى أكثر من الحقيقة التجريبية وكما هى فقد اعتبرها ببساطه خطأ بأن أى إدراك يستمر غير ملاحظ ، وبناء على ذلك فهى خطأ ، حيث أن الإدراكات المنقطعة يمكن أن تكون متطابقة – إن تبريره لهذا الاستنتاج يكمن فى قبوله لحجة مشكوك فيها فحواها التوهم من الخيال .

إن تبريراته على وجه الدقة هى : لو أن الإدراكات تتصف بأن لها وجوداً مستمراً ، فقد يكون لها أيضاً وجود متميز ، لكنه جادل فيما بعد بأن الوجود المتميز منكر إليها بالخبرة ، كما جعل الإحساس

والحركة والصلابة والألوان والأصوات والحرارة والبرودة والألم واللذة كلهم على قدم المساواة ، فهى (ليست شيئاً إلا إدراكات تنشأ من أشكال خاصة وحركات أجزاء الجسد) (3-192) .

منح هيوم ظاهرة الثبات الدور الرئيس فى جعل الخيال يحول الانطباعات إلى موضوعات ثابتة ، لكنه لم يعتقد أن هذا كاف ، لذا فقد كان المعين على عمله هو ما أسماه بالتلازم أو الاقتران ، وقد أعطى مثالين ، المثال الأول : أنه عند عودته إلى غرفته بعد أن غياب ساعة وجد أن نار مدفئته أقل اشتعالاً ، وبما أنه شهد على نحو متكرر عملية خمود النار ، فإن خياله ملأ الفجوة Gap ، والمثال الثانى أكثر تعقيداً ، إنه عن بواب أحضر إليه خطاباً من صديق يبعد مائتى فرسخ ، لقد سمع ضوضاء صاحب إدارة مفصلات الباب ولكنه لم يرها ، ولم ير البواب يصعد السلالم ولم يلاحظ فى هذه المناسبة حركة عامل البريد والناقلة التى أحضرت إليه الخطاب ، وعلى الرغم من ذلك – فقد وصل عن طريق الخبرة السابقة إلى إقران صرير مفصلات الباب مع رؤيته يفتح ، لقد علم أن البواب لم يظهر فى غرفته دون أن يصعد السلالم ليصل إليها ، وعلمته الخبرة أن الخطابات لم تصل من أماكن بعيدة دون أن تنقل بوسائل نقل يمكن ملاحظتها ، ولذلك مرة أخرى ، فإن خياله ملأ الفجوات ، ويلاحظ – على الرغم من ذلك – أن خياله هنا أعطى عملاً مختلفاً ليفعله أكثر من المثال السابق ، لم يعد مجرد أمر لملء النسخ المفقودة وفقاً لأعضاء التسلسل المشابه السابق ، قد لا يكون هناك أى

تسلسل كهذا بالضبط وعلى سبيل المثال ، فمن غير المحتمل إلى حد بعيد أن هيوم يشهد بالفعل الحركة المستمرة بشأن الخطاب عبر مسافة مائتى فرسخ ، فى هذا المثال لم يُبسْط خياله فقط لمبدأ الثبات لكى يملأه بمجموعة كافية من الموضوعات الاعتيادية أو المألوفة ، لقد فَرَض أيضاً – كما اعترف هيوم نفسه – درجة كبيرة من الارتباط فى تشغيلها بشأن ما حدث بالفعل فى خبرته السابقة ، ما جعل هذا النهج صحيح هو قوته التفسيرية ، ومع ذلك يؤكد هيوم أن خيالنا يخدعنا ، الحقيقة أن مدركاتنا ليس لها وجود مستمر ومتميز ، وهو كذلك ، يحاول الفلاسفة التغلب على هذه الصعوبة ، من خلال تبين الفارق بين الإدراكات الحسية وبين الموضوعات (الأشياء) مما يسمح للإدراكات الحسية (أن تنقطع وتزول) وينسب إلى الموضوعات (الوجود المستمر والتطابق) ، لكن هذا (النسق الجديد) مخادع ، إنه يشتمل على كل مصاعب النسق الساذج Vulgar System بالإضافة إلى بعض المصاعب الأخرى ، الغريبة بذاتها (T211) ، فى المقام الأول إنه يضمر اتهامه للخيال بالكامل بإنسابه إلى النسق الساذج (نحن مقتنعون تماماً بان إدراكاتنا الحسية المتشابهة مستمرة ومتطابقة ومستقلة ، لا يجب أبداً أن ننتهى إلى الرأى المتضمن بأن الوجود مزدوج (T215) ، حيث أنه لن يخدم أى غرض – إذن – لا يجب أن نتبناه إذا كنا مقتنعين تماماً بأن إدراكاتنا الحسية تابعة ومنقطعة ، لبحثنا عن شئ لنسب الوجود المستمر الذى سيحتاجه ، أى موضوع – إن هذا يبين تذبذب

Vacillation عقولنا بين فرضين متناقضين يقود الفلاسفة إلى قبول الفرضين معاً أثناء محاولتهم إخفاء التناقض ، ثانياً – لا يلقى هذا الفرض أى مساندة فى العقل ، حيث لا يمكن أن يكون لدينا أساس منطقى لربط إدراكاتنا الحسية بالموضوعات التى لم تختبرها الافتراضات السابقة .

إن ما يفعله الفلاسفة المشاركون فى هذا الخداع – هو اختراع مجموعة ثانية من الإدراكات الحسية التى ينسبون إليها الوجود المستمر والمتميز الذى سينسبونه إلى إدراكاتنا الحسية الفعلية إذا لم يمنعهم منطقهم ، باختصار ، إن النسق الفلسفى محمل بهذه السخافة التى تتكر وتؤسس فى الوقت نفسه الافتراض الساذج (T218) – سأجادل أن هيوم أدخل قليلاً من الإنصاف إلى النسق الفلسفى ، إن هذا متعذر الدفاع عنه بوصفه يبرز موقفاً معيناً ، ولكن هذا يمهد الطريق لحل مصاعبه ، لقد برره ، على الرغم من ذلك ، فى هجومه على رأى لوك الذى يحتمل أنه كان هدفه الحقيقى – ومهماً كان التمييز الذى انتهينا إليه بين الأشياء كما هى بالفعل وبين ما تبدو عليه بالنسبة لنا ، فلا يمكن أن تأخذ شكل (تعدد العوالم) بشكل صحيح ، لا يمكن أن تدخل الموضوعات الفيزيائية إلى المشهد مثل الأسباب الغير القابلة للإدراك مما يدركه الشخص ، وإذا أمكنها الدخول فليس هناك ضمان لمنحها أى تشابه لتأثيراتها القابلة للإدراك ، كيف إذن يمكننا

أن نصل إلى اعتقاد مضمون بوجود موضوعات فيزيائية لها خصائص قابلة للإدراك مع التى نثق بها طبيعياً ؟

أقترح أن هيوم نفسه قَدْم الإجابة الأفضل: أن ظاهرة الثبات والارتباط التى استشهد بها لشرح كيفية وقوعنا فى وهم افتراض بأن إدراكاتنا الحسية التى تتصف بأن لها وجود مستمر ومتميز يمكن أن تأخذ بعين الاعتبار بدلاً من ذلك ، بوصفها مزودة بأساس كافى للتحول التخيلى لانطباعات الإحساس أو المدركات الحسية وفقاً لرسل ، أنا أفضل أن أدعوها بذلك إلى مقومات العالم الجسدى للإدراك العام .

إن الخطأ الخطير فقط الذى ارتكبه هيوم كان افتراض أن الموضوعات الناتجة كانت خيالات – ما تعتمد عليه بشكل جزئى هو ما تسمح به نظرياتنا بأن تكون ، والنظرية التى يمكن أن تطور مفهوم المدركات الحسية بناءً على مبادئ هيوم تشتمل على معايير مقبولة بشأن الوجود ، وبالتالى ، ليس هناك سبب – بناء على ذلك – لإنكار أن الموضوعات التى تستوفى شروط هذه المعايير موجودة فى الحقيقة .

بقدر ما أعلم أن أول فيلسوف حاول بجدية أن يحلل الاعتقاد الساذج فى الموضوعات الفيزيائية عن طريق تطوير مفاهيم هيوم فى الثبات والارتباط، كان بريس H. H. Price فى كتابه (نظرية هيوم فى العالم الخارجى) الذى نُشر فى عام 1940م ، إنه عمل شامل وبارع على نحو مميز ، إلا أنه لم يلق الاهتمام الذى يستحقه – استعار بريس من رسل مصطلح (المحسوسات) ليشير إلى الانطباعات التى قد لا تحس

بالفعل ، وأوضح بتفصيل مقنع كيفية حدوث فجوات بأماكن مختلفة فى تسلسل متنوع للانطباعات التى نعتبرها منبعثة من الموضوع الفيزيائى نفسه تستطيع دعم تصور (المحسوسات) التى لا يتم الشعور بها كملاءة لهذه الفجوات .

إنه لم يعتقد أن هيوم قد وضع أى معنى لعبارة المحسوسات التى لا يتم الشعور بها موجودة بالفعل ، ولم يعتقد أن هيوم أمكنه أن يتبنى بشكل متسق إما نظرية تتضمن أنه عندما (نشير إلى بعض الموضوعات الفيزيائية ، فإننا نكون متأكدين بأن انطباعاتنا الفعلية هى مثل ما ستكون لو وجدت (المحسوسات) الملائمة أو النظرية البرجماتية بدرجة أكبر التى أبانت أن العبارات التى تصاغ عن الموضوعات الفيزيائية ليس لديها قيم حقيقية ، ولكنها تكون منظمة كطرائق أو وسائل إما أن تكون أكثر أو أقل نجاحاً للتفسير وللتنبؤ بحدوث الانطباعات الفعلية ، أعتقد أن النظرية الأكثر واقعية ستكون الأجدر بالتفضيل ، وبرغم ذلك ، فإن اقتراحات بريس ربما تحفظ إخلاص أقرب لهيوم ، إن اعتراضى الأساسى على حجة (بريس) هو أنها تمثل الموضوعات الفيزيائية بما أسماه (أسر) المحسوسات – من بعض النواحى – التى تسمح للأسرة أن تستغرق أعضاء أو تكون كما لو استغرقت أعضاء متنوعين ذات صفات متضاربة فى مكان معين وعند زمن معين .

لقد حاول تفادى التناقض بواسطة جعل الخصائص نسبية بحسب وجهات النظر ، لكى يكون المحسوس الذى يعد مضمراً Elliptical

من وجهة نظر واحدة قد يكون مترابطاً زمانياً – مكانياً مع محسوس بواسطة حاسة واحدة أو انطباع فعلى من وجهة نظر مختلفة ، إلا أن هذه حيلة يائسة، وقد لا تكون حتى متماسكة .

أعتقد أننا نستطيع أن نصل إلى نظرية أكثر بساطة وأكثر واقعية إذا استفدنا من حقيقة أن الانطباعات عن المرئى والملموس تحدث فى مجالات الإحساس الممتدة مكانياً والمتداخلة حسياً فى الزمن، وبعبارة أخرى ، لا تشمل معطياتنا المحكمة نماذج فردية فقط ولكن تشمل العلاقات المكانية والزمانية التى تُحمل على بعضها ، هذه ميزة خبرتنا التى منحها هيوم انتباهاً قليلاً مدهشاً .

لقد خصص بالفعل خمساً من الأجزاء الستة المكونة للقسم الثانى من الكتاب الأول (رسالة) لموضوع المكان والزمان ، لكن هذه الأجزاء الخمس اهتمت بصفة أساسية بالمصاعب التصورية التى ربما كان تركها للمتخصصين فى الرياضيات أكثر فائدة ، لقد اقتنع بالفعل بتخصيص علم الهندسة Geometry لهم ، ولتأكيد الاختلاف الشديد الذى بينه فى كتابه (بحث) بين الأسئلة المتعلقة بالعلاقات بين الأفكار وبين تلك المتعلقة بأمور الواقع – وكما هى – لقد أصر على استنتاج بسيط للغاية للمفاهيم الرياضية من انطباعات الإحساس والتى تؤدى ، بناء على ذلك ، إلى إنكار فكرة الانقسام اللامتناهى ، لقد جادل بدلاً من ذلك ، بأن الفكرة وبناء عليه الانطباع عن أى امتداد متناه يجب أن يكون مركباً مؤلفاً من تجاور عدد متناه من النقط

الرياضية ، هذه النقط هى موضوعات عينية إما ملونة أو ملموسة وذلك بقدر قابليتها للرؤية أو اللمس – إنها تعد حدوداً حسية دنيا Minima Sensible ليس لكونها أصغر الموضوعات التى ليس بعدها انقسام القادرين على الإحساس بها حيث إن اختراع الميكروسكوبات الفعالة ، أكثر ، قد تظهر أن الانطباع الذى اعتقدناه بوصفه بسيطاً كان فى الحقيقة مركباً ، لكن استناداً إلى حقيقة أنها ليس لديها أجزاءً ، فقد استنتج هيوم أن كل مجال إحساس مرئى أو ملموس هو ملاء ، حيث أنه ليس لدينا فكرة عن الفاصل المكانى بين انطباعين ما عدا الشئ الذى يكون مركباً من النقط الملونة أو الملموسة أو الغير قابلة للقسمة ، ما يكون حقيقى بالنسبة للمكان ينطبق بالتساوى على الزمان بنفس المصطلحات فى كل حالة واستبدال التعاقب الفورى محل التجاور المؤقت.

من بين المصاعب الأخرى الواضحة أن نظرية هيوم تهاجم بعنف مفارقات زينون ، لكن نظرية المتواصل الرياضى Mathematical Continuity لم تكن قد طورت بشكل مناسب حتى القرن التاسع عشر ، ونشأت مشاكل هيوم – جزئياً – من عدم قدرته على فهم كيف أن عدداً لامتناهى الأجزاء قد يؤلف أى شئ أقل من كل لامتناه Infinite Whole ، مع ذلك ، فمن المستغرب ، أن العلاقة الزمانية – المكانية – فقط كان راغباً فى أن يعرفها بوصفها مانحة للإحساس

بوجود تجاور Contiguity هذا لفرض قيد على خبرتنا الحسية التى لم تطابق Conform ببساطة .

إن الاستمرار الزمانى – المكانى الذى يصف بالفعل معظم خبراتنا الحسية وخصوصاً تعاقب مجالات إحساسنا المرئية تؤيد تصور فكرة العلاقات الزمانية – المكانية إلى ما وراء الحدود التى تخضع لها فى الأصل، بهذه الطريقة يمكن أن تُعتبر مجالات الإحساس المتتابعة بوصفها مجاور مكانى ، إذن فالحقائق التى أوجزها هيوم تدرج تحت مفهوم الثبات والترابط، فإن ظهور انطباعات متشابهة فى محيط حسى متشابه يجعله طبيعياً ، كما لاحظ بالنسبة لراصد يتبنى قياساً جديداً للتطابق وفقاً لهذه الانطباعات المتشابهة بأنها لا تعتبر متشابهة فقط بل متطابقة ، إن اختلافنا الوحيد عن هيوم فى هذه النقطة – انه يمثل الراصد ليس بوصفه قد تبنى قياساً جديداً للهوية ولكن كمرتكب لخطأ حقيقى وبالطريقة نفسها ، فإن وصف هيوم للعملية بأن حقيقة أن الانطباعات (تستعاد) بانتظام يؤدى إلى التفكير فيها على أنها غير محسوسة باستمرار ، يجب أن تعتبر – أنا أقترح ليست كتفسير لخطأ آخر – ولكن كأساس لنشر مفهوم التطابق (الهوية) – إن هذا – بناء على الفكرة – يعد تمريناً كاملاً حقيقياً للخيال التى تظهر فيه الانطباعات المرئية على نحو متعاقب ، يجب أن تتصور كى تبقى مقترنة زمنياً ولتشغل أوضاعاً دائمة فى المكان المرئى الثلاثى الأبعاد الممتد بلا حدود .

نحتاج فى هذه المرحلة ، على الرغم من ذلك أن نتجاوز هيوم قليلاً – إن الانطباعات الفعلية التى أرجعناها للموضوع نفسه ليست كما قال بشكل خاطئ – متشابهة تماماً – حتى لو لم نسمح بعد بتغيرات فى الموضوع ، فسوف يكون هناك تنوع ناتج عن تغيرات فى حالة أو وضع الراصد – ما يجب – بناءً عليه – أن نتصوره كدائم ليس أى انطباع فعلى ، ولكن ما أسميته فى مكان أخر بأنه (مدرك حسى معيارى)(*) .

إن هذا تركيب لما أسماه بريس محسوسات نووية Nuclear ، مثل التى يمكن الحصول عليها من وجهات نظر أفضل – إنها تخدم كنموذج تتلاءم معه الانطباعات الفعلية بإحكام أقل أو أكثر ، قد توصف أيضاً المدركات الحسية المعيارية بأنها مستمرات مرئية – يمكن أن تعد تغيرات كيفية مجتازة – عندما تحت تنوع الأوضاع – يُظهر النموذج التنوع بوجه واحد أو أكثر ، بينما يظل الباقى دائماً فى البيئة الحسية الدائمة المهيمنة .

أستطيع هنا أن ألخص فقط المراحل المتعاقبة التى يفترض أن تمر بها النظرية ؛ أولاً : تعتبر الأماكن منفصلة عن شاغليها مما يسمح بإمكانية الحركة . ثانياً : لأسباب متعددة ، فقد اختيرت مجموعة من المستمرات المرئية كمُشْكلة لما يمكن أن ندعوه (بالجسد المركزى)

(*) in the central questions of philosophy

(Central Body)، هذا المصطلح مستعار من الفيلسوف البرجماتى العظيم تشارلز ساندرز بيرس C. S. Peirce ، أن هذا بالطبع مراقب جسده ، على الرغم من أنه لم يوصف بذلك الوصف بعد – يشيد المكان الملموس على المبدأ نفسه مثل المكان المرئى ، والأسس المكتشفة لنُسب كيفيات ملموسة لمستمرات مرئية – أدخلت الأصوات والروائح والمذاقات إلى الصورة عن طريق إرجاعها إلى مصادرها الظاهرة ، يبدأ المراقب باستنتاج بعض الارتباطات العرضية البسيطة التى زودته بمخطط عما تكون عليه الأشياء ، لاءمت معظم انطباعاته هذا المخطط ، لكن البعض لم يتلاءم ، ينشأ الوعى الذاتى مع تطابق مستمرات مرئية – ملموسة كمشابهة للجسد المركزى فى كونه مصادر إشارات .

يمكن أن تفسر معظم هذه الإشارات كتعزيز للجسد الأساسى لخبرات المراقب ، ولكن مرة أخرى بعضها لا تستطيع – هذا هو مصدر الاختلاف بين ما هو عام وبين ما هو خاص – فى المرحلة الأخيرة – فلو أننى اقتبست وصفى لذلك ، فإن المستمرات المرئية – الملموسة (تفك عن سلاسلها) ، إن إمكانية وجودها فى أوقات عندما لم يُلاَحظوا ، تمتد لنقطة معينة حيث يكون من غير الضرورى لوجودها أن يجب أن تلاحظ دائماً أو حتى يجب أن يكون هناك أى مراقب ليلاحظها ، حيث إن النظرية أيضاً تستلزم ألا تغير هذه الموضوعات كيفياتها القابلة للإدراك الحسى إلا كنتيجة لبعض التعاقب الفيزيائى فى ذواتها ، أنها تتباين مع

الانطباعات المتقلبة التى لدى مختلف المراقبين ، بهذه الطريقة تنفصل الموضوعات عن المدركات المجردة منها والتى ينظر إليها أيضاً بوصفها مسئولة عرضياً عنها .

أعتقد أنى فى تطوير هذه النظرية المتعلقة بإظهار الموضوعات نجحت فى تسوية الخلاف بين نسق هيوم الساذج والفلسفى ، ولكن تبقى مشكلة تسوية خلاف هذه النتيجة مع النسق الفلسفى المعاصر ، أعنى ، وصف العالم الفيزيائى التى تقدمه الفيزياء المعاصرة ، هذه المشكلة تشتمل على تشعبات عديدة التى لا أستطيع الخوض فيها هنا ، بإيجاز ، ما يبدو أنه حدث أن البناءات المدركة التى يحتاج إليها مفهوم المكان العام مرفوضة فى القطاع الخاص Private Sector ومستبدلة بجسيمات Particles غير قابلة للإدراك ، إن كانت العلاقات المكانية تستطيع أن تنفصل انفصالاً حقيقياً بهذه الطريقة عن مصطلحاتها الأصلية فهذه مسألة قابلة للمناقشة ، إلا أنه غير واضح ، بالنسبة لى بأنها لا تستطيع ، ما يجب أن نتجنبه فى أى حالة كما قال هيوم هو النسق الذى يضع الموضوعات الفيزيائية – كما هى بالفعل – فى مكان مزدوج ، حيث (لا تعطينا إحساساتنا أى مدخل . إذا منحتنا الفيزياء أى حجج للحقيقة ، فإن تفسيراتنا لها يجب أن تكون واضحة .

إن الهوية الشخصية خاضعة للاستمرار الجسدى فى نظرية العالم الخارجى التى أدخلتها على هيوم ، لم تكن هذه وجهة نظر هيوم، لكنها لا تحدث أى تحريف جذرى لمبادئه ، على النقيض ، فى

الجزء المخصص لهذا الموضوع فى كتابه (رسالة) ، ادعى أنه واضح بأن طريقة الاستنتاج نفسها ، يجب أن تكون مستمرة والتى تفسر بنجاح هوية النباتات والحيوانات والسفن والبيوت وكل المنتجات المركبة المتغيرة فى كلا من الفن أو الطبيعة (T259) .

إن الاختلاف فقط هو أن هيوم يعادل الهوية الشخصية بهوية العقل ويُعْرف ذلك دون أى إشارة إلى الجسد ، عندما أقول أنه يُعْرف ذلك فإننى أسمح لقوله بأن (الهوية التى ننسبها إلى عقل الإنسان هى واحدة فقط مفترضة ، ومثل الانتسابات الأخرى للهوية المنبعثة من عملية التخيل (T259) .

إننى على الرغم من ذلك متأثر أكثر بحقيقة أنه أساسى لوصف هيوم للعواطف وأيضاً لنظريته الأخلاقية والتى تتضمن عدم امتلاك المرء لفكرة حقيقية عن ذاته ، وهو ليس متناقضاً لتحرير هذه الفكرة من كل اعتماد على الانطباعات ، بناء على ذلك ، ما قصدته بأن ما يعنيه بما أسماه بهوية عقولنا تكون (افتراضية) ، ليس ما يسميه بهوية (حقيقية) ، يعنى ، هوية موضوع مفرد غير متغير ، لكن واحد يمكن أن يحول إلى علاقة بين إدراكات حسية ، ليس هناك تضمنات أكثر فى حالة الأجساد المدركة حسياً ، هذه العلاقات لا تحدث فعلياً ، هناك مقطع واحد فى كتابه (فى العواطف) ، فى الجزء الذى يسهب فيه عن طبيعة التعاطف Sympathy كعامل فى حب الشهرة حيث يتكلم بالفعل عن امتلاكنا لانطباع عن ذواتنا (هذا واضح) يقول : (إن

الفكرة أو بالأحرى الانطباع عن ذواتنا هى دائماً صميمة معنا ، وأن وعينا يمنحنا مفهوماً مفعماً بالحيوية عن شخصيتنا وأنه ليس من الممكن أن نتخيل أى شئ يستطيع فى هذا الخصوص أن يتجاوز هذا (T317) ، إذا لم يكن هذا خطأ غير مقصود ، فإن الانطباع يجب أن يكون بالتفكير الموجه لفكرة الذات التى يؤكد هيوم بشدة فى مكان آخر أنه إذا لم يوجد انطباع ثابت وغير متغير ، فإن المرء لا يكون لديه انطباع عن ذاته ، لقد طور هذه النقطة فى مقطع ، اقتبسته، من الكتاب الأول (رسالة) ، من ناحيتى ، يقول (عندما أدخل بعمق أكثر فيما أسميه – ذاتى – أجدنى أتعثر دائماً بإدراك حسى خاص ، أو بأشياء أخرى مثل الحرارة أو البرودة أو الضوء والظل ، أو الحب أو الكراهية ، الألم أو اللذة – لا أستطيع أن ألحق بذاتى فى أى وقت بدون إدراك حسى ولا أستطيع أبداً ملاحظة أى شئ إلا الإدراك الحسى) .

لقد قام بتنازل Concession واضح فحواه أن بعض الأشخاص الآخرين (ربما – ويمكن) أن يدركوا شيئاً بسيطاً ومستمراً ، يسميه (الذات) لكن يظهر هذا كتهكم وسخرية ، بتأكيده بأنه طرح جانباً الميتافزيقيين من هذا النوع ، قد أغامر لأثبت أن سائر البشر ليسوا سوى حزمة أو مجموعة من الإدراكات الحسية المختلفة التى تتبع بعضها بسرعة لا تتخيل وبتدفق وحركة دائمة (T252) .

إن استعداد هيوم ليتحدث عن باقى البشر يوحى بأن افتراضه موضع إنكار فقط كتعميم تجريبى ، إنه – إلى حد ما – يستطيع أن يفكر بأن أى شئ يمكن أن يعتبره كمعرفة بحتة بالذات .

ما العلاقات – إذن – التى بمقتضاها تشكل حزمة من الإدراكات الحسية الذات ؟ بصرف النظر عن الإشارة السريعة للتشابه والسببية وملاحظة أن الذاكرة لا تقدم الكثير كهوية شخصية مكتشفة عن طريق توضيح علاقة السبب بالنتيجة بين إدراكاتنا الحسية المختلفة (T262) .

لقد حاول هيوم بالكاد أن يعطينا إجابة ، وبأحد تذييلات مؤلفه (رسالة) يعترف بفشله فى إيجاد إجابة ، ورأى بالفعل أن سؤال الهوية الشخصية بشكل كلى ، كمسبب لمشكلة لا يستطيع حلها .

إنه يؤيد الخطوات السلبية فى جدله ، مثل (ليس لدينا فكرة عن جوهر خارجى متميزة عن الأفكار المتعلقة بالكيفيات الخاصة ، ولذلك ليس لدينا فكرة عن الذهن مميزة عن الإدراكات الحسية الخاصة ، ومن ثم والاستنتاج المؤيد بالحقيقة الواضحة (أنه عندما أبدأ فى تأمل ذاتى ، لا أستطيع أن ألاحظ أبداً هذه الذات بدون إدراك حسى واحد أو أكثر ، ولا أستطيع ملاحظة أى شئ إلا بالإدراكات الحسية) التى – بناء على ذلك تكون تركيبة الإدراكات الحسية هى (التى تشكل الذات) : حيث أن كل الإدراكات الحسية متميزة : أن ما هو متميز يكون بارزاً : وما هو بارز يمكن فصله بالفكر أو بالخيال مما

يؤدى إلى أن الإدراكات الحسية تعد كموجود منفصل وأنها يمكن أن توجد وجوداً منفصلاً بدون أى تناقض أو سُخف (T634-5) – لكن بوجود هذه الإدراكات الحسية المفككة لا يمكنه أن يجد وسيلة لربطها معاً – إنه يقول (إن هناك مبدأين لا يستطيع أن يثبت عليهما ، لأنه يعتقد أن كل منهما صحيحاً ، إنهما على التوالى : أن كل إدراكاتنا الحسية المتميزة تكون وجودات متميزة، وأن العقل لا يرى أبداً أى ارتباط حقيقى بين الوجودات المتميزة) (T636) .

إن هذه العبارة محيرة ، فمن الجلى أن هذين المبدأين : ليسا متضاربين مع بعضهما البعض ، ما يمكن أن يعنيه هيوم هو أنهما متضاربان بشكل إجمالى ، وذلك بافتراض أن الإدراكات الحسية قد تكون (مركبة ، لتكوين الذات ، لكن حتى هذا غير واضح ، إنه يعتمد على ما نفهمه (بالارتباط الحقيقى) ، فإذا عنى هذا ارتباطاً منطقياً ، إذن لا يوجد سبب منطقى يوجب ألا تكون الإدراكات الحسية وجودات متميزة، بسبب أننا نستطيع أن نفكر بثبات فى انفصالها ، ومن ثم تبقى كحقيقة فى هذه العلاقات التجريبية بالنسبة لبعضها البعض أنها تعد كافية لتشكيل الذات – إن هذه هى الطريقة التى اتبعها وليام جيمس الذى قدم النظرية الهيومية فى الذات فى مؤلفه المهم (مبادئ علم النفس) – الذى بقى كلاسيكياً منذ نشره لأول مرة عام 1890 .

تقوم النظرية على ما اعتبره جيمس علاقات خبرة مكثفة– واستمرار محسوس ، وبغض النظر عن تهمة الدائرية الممكنة ، فإن أخطر اعتراض على نظرية من هذا النوع هو أننا لسنا واعين باستمرار ، ولذلك ، فنحن بحاجة إلى إيجاد بعض الطرائق لربط الإدراكات الحسية التى تقع جانبى الفترة الفاصلة مثل نوم بلا أحلام ، وليس هناك مرشح واحد ، على الأقل ، لهذا الدور ما عدا علاقتها العامة .

إن الطبيعة تمثل بنفسها مشكلة وصول إلى الذات (الشخص) والجسد نفسه ، ولنكن مقتنعين بالقول بأن انتماءها للعقل نفسه غير مساعد ، إذا كانت مجرد طريقة للقول بأنها تبقى حيث العلاقة التى نتطلع لأن تحدث ، وكذلك فهى غامضة إذا أرجعتها إلى نفس الفاعل العقلى الأساسى ، وضع هيوم هذا بإيجاز شديد فى تجريده لكتابه (رسالة) وهو أن العقل ليس جوهراً يلازم الإدراكات الحسية (T658) .

لم تكن هذه هى الصعوبة الوحيدة – إن النقطة التى تُسقط بغرابة ملاحظة هيوم الشكية ، هى أن المرء ينسب الهوية إلى أشخاص آخرين أكثر من ذاته ، وهذه الانتسابات تعتمد على تعريف أجسادهم إنها ليست كما لو كان هناك مجموعة من الإدراكات الحسية التى يمكن أن نصنفها إلى حزم أساسية وكل شخص يلقى الضوء على الحزمة الخاصة التى تشكل ذاته ، نحن لسنا على دراية بخبرات الآخرين بالطريقة التى ندرك بها خبراتنا ، لكن هذا لا يمنعنا من تطبيق المعيار السيكولوجى للهوية على أشخاص آخرين ، ولا نترك ذلك

يلغى المعايير الجسدية ، يستطيع المرء أن يتخيل الظروف التى يتعلق فيها شخص بإحساس معين – ليقول أن شخصين أو أكثر أسكنوه فى الجسد نفسه – على نحو متزامن – أو ربما كنتيجة لزراعة المخ – إذا كان ممكناً فيزيائياً أن يشغل الشخص نفسه أجساداً مختلفة فى أوقات مختلفة ، ومع ذلك ، فإن التعريف الأولى من وجهة نظر آخرين غير الشخص أو الأشخاص المعنيين ، سيبقى نفسه الذى للجسد ، وإذا كنت محقاً فى تفكيرى : أن الوعى الذاتى يشمل تمييز الشخص عن الكائنات الواعية الأخرى ، هناك سبب لبقاء عامل الاستمرار الجسدى مسيطر ، إن هذا ليس متضارباً مع فكرة أن الأجساد نفسها مركبة من المدركات الحسية ، إن هذا بالأحرى : توضيح مدهش لطريقة فى أن نظرية متضمنة أن انطباعاتنا تسبب ، وفقاً للمبادئ الهيومية أو تتغلب على مصادرها ؛ أعيد تفسير الانطباعات فى النظرية كحالات المراقب ؛ وشكل جسد الأشخاص بين الموضوعات الفيزيائية التى تسمح النظرية التى تخص تخميناتنا للوجود – بهذا – لأن يحدث .